❸ **الدَّلِيْلُ الثَّالِثُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَى وجوبِ مخالفة المشركين في أعيادِهم :**

ما رواهُ الشَّيخانِ عن عائشة ﵂ ، قالت : دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ ، تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ ، يَوْمَ بُعَاثَ، قَالَتْ: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا ، وَهَذَا عِيدُنَا** » [(١)].

وهذا الحديث فيهِ ردٌّ بَيِّنٌ على من ادَّعى إباحة الأغاني ، ودليلٌ على أنَّ الأعياد من الشريعةِ ، ومن الدينِ.

– إنَّ بعضَ أهل الأهواء استدلُّوا بهذا الحديث على جواز سماع الغناءِ ، ومن حكمة الله – عزَّ وجلَّ– ودفاعِهِ عن دينِهِ أَنَّ (أَهْلَ البِدَعِ) إذَا أتَوْا بدليلٍ – سواءٌ من الكتاب أو السنة – يستدلُّون به على بدعتهم أومعصيتهم ؛ ففي نفْسِ دليلهم حجةٌ عليهم ؛ كذا قال شيخُ الإسلام وغيرُهُ من الأئمةِ ، وهذا شيءٌ واضحٌ جليٌّ.

فهم استدلوا بهذا الحديث على إباحة الغناء ، وهو حُجَّةٌ عليهم لا لهم ، لماذا ؟ **لقول عائشة** ﵂ : " **دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ** " ، والجاريةُ : هي البنتُ الصغيرةُ التي لم تتجاوز سنَّ البلوغِ . " **تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ، يَوْمَ بُعَاثَ** " ، ويوم بُعاثٍ : كان يومًا فيه قتالٌ بين الأوس والخزرجِ ، وكان الفوزُ والانتصارُ للأوس ، ومعروفٌ أن هاتَيْنِ القبيلتين من قبائل العرب كان بينهما – دائمًا – صراعٌ ونزاعٌ .

فالجاريتان كانتا تُغَنِّيَان بما تقاولَتْ بِهِ الأنصارُ في يوم بُعاث ؛ فكانا يُغَنِّيَان يوم حربٍ ؛ أي : (إنشادٌ عن النَّصْرِ) ، ولم يكونا يُغَنِّيَان عن القلبِ ، أو الروحِ ، أو العينِ !! فخرج هذا الغناء عن معاني الكلمات التي لا تجوز ، وفي ديننا جائزٌ الإنشادُ الذي ليس فيه كلماتٌ خارجةٌ ، أو شيءٌ يُثير الغرائزَ والشَّهوات ، أو يُحرِّكُ السَّواكن ، إلى آخر ذلك ؛ فإذا غنى أحدٌ إنشادًا دينيًّا ، مثل الأغاني الدينية —

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٩٥٢) ، ومسلمٌ (٨٩٢) .

التي نسمعها الآن – ، وليس فيها موسيقى ؛ فلا مانَعَ من ذلك ، ولكن لا نُكثر من ذلك، وأنا لستُ هنا بصدد التحدث عن بَحْثِ الغِنَاءِ – الآنَ – .

فلو أتينا اليوم بأيِّ أغنيةٍ من الأغاني التي غُنِّيَتْ عن نَصْرٍ من انتصارات المسلمين ، ونزعْنَا منها الموسيقى ؛ فالكلمات – نفسُها – ليس فيها شيء ؛ فهي كانت عبارة عن : (بسم الله ، الله أكبر)، أو : انتصرنا وحاربنا ؛ فليس فيه محرمٌ ، ولا منع أحدٌ من ذلك ، وهذا الذي كانت تقولُهُ الجاريتان .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : " **أَمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟** " : والمزمار في اللغة : مشتقٌّ من الزَمْر ، وهو الصوت الذي له صفيرٌ .

فالجاريتان كانتا تُغَنِّيان بصوتٍ فيه رنَّةٌ ، ولم يأتِ في الحديث أنَّهُ كان معهما آلاتُ عَزْفٍ ؛ فلم يأتِ ذكْرُ ذلك .

○ الدَّلِيْلُ على أنَّ المِزْمَارَ هُوَ الصَّوْتُ :

قيل : المزمارُ (في اللغة) : هو الصوتُ الحسَنُ ([1]) .

إذَنْ ؛ المِزْمَارُ يُطْلَقُ عَلَى الصَّوْتِ الذي فيه صفيرٌ ، ويُطْلَق (أيضًا) على الغناء بصوتٍ حسنٍ .

والدليلُ : قوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ : « **لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ** »[(٢)].

ومعنى : (مَزَامِير آلِ دَاوُدَ) ؛ أي : الصَّوتُ الحَسَنُ ؛ فدَاودُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوتي صوتًا حسنًا ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ:١٠] ؛ فشبَّهَ صوتَ أبي مُوسَى الأشعري ﷺ بصوت دَاودَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حلاوتِهِ

([1]) " تهذيب اللغةِ " – للهروي – (١٣ / ١٤٣) ، و " النهاية " – لابن الأثير – (٣١٢/٢) ، و " لسان العرب " – لابن منظور – (٣٢٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٠٤٨) ، ومسلمٌ (٧٩٣).

وجمالِهِ وحُسْنِه .

فكلمةُ (مزمارٍ) ، ليس معناها : آلةَ المزمار ، التي هي آلةٌ من آلاتِ الموسِيْقَى على شكل عصَا طويلة ؛ كلاًّ ؛ ولكن سمِّي (مزمارًا) ؛ استعارةً ، أو تجَوُّزًا ، ولكن أصلُ كلمةِ مزمارٍ (في اللغة) ؛ كما ذكرناهُ .

فلِمَ (إذن) استدلَّ (هؤلاء !!) بقول أبي بكر ﷺ : « أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » على أنَّ هناك آلاتٍ في بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !!!

فهذا كلامٌ خطأٌ من كلِّ وجهٍ ؛ لغةً وشرعًا ؛ فكيف يكونُ في بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مزمارٌ ؟!! وهو نفسُهُ الذي قال : « **لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ** » [(١)].

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو مَنْ حرَّم المعازف ؛ فكيف يُحرِّمها ، ثم يقولُ لأبي بكر ﷺ : **(دعهم)** ؟!

وكيف يُحرِّم المعازف ، ثم يُبيحُها في بيتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟!

فدلَّ ذلك على أنَّ المزمار – هُنَا – المقصودُ بِهِ : الصَّوْتُ ، وليس المقصُودُ آلةَ المزمارِ ؛ لأنَّهُ صلى الله عليه وسلم هو من حرَّم الآلاتِ ؛ فضلاً على أنَّ اللفظة – هنا – لا تستقيْمُ عَلَى الآلةِ ؛ فاللفظة – هنا – معناها لغةً : الصوْتُ الحَسَنُ ، وصَوْتُ الصَّفِيْرِ.

وأيضًا ؛ في الحديث ما يدلُّ على أن الأعياد من الشرائع :

وهو قول النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا ، وَهَذَا عِيدُنَا** » ؛ أي : أنَّنَا

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " – مُعَلَّقًا – بصيغة الجزم (٥٥٩٠) ؛ كما في " **الفتح** " (٥٣/١٠) ، وانظر : " صحيح " سنن أبي داود (٤٠٣٩) ، وابن أبي شيبة في " مصنفه " (٢٣٧٤٨) ، والبيهقي في " الكبرى " (١٢١/١٠) .

لَنَا عيدٌ يخصنا ؛ فأصبحت المسألة دينيةً شرعيةً ، ليست من العادات ؛ لأنها لو كانت من العادات مَا قَالَ : « **لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا** » ؛ فهذا معناه : أنَّ لكلِّ ديانةٍ من الدِّيَانَاتِ عيدًا ؛ سواءٌ : اليهود ؛ فلهم عيدهم ، والنَّصَارى – كذلك – ، ونحن لنا عِيْدُنا.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – :

" والدَّلالة من وجوهٍ :

أحدها : قوله : « **إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا** » ، فهذا يوجب اختصاص كل قوم بعيدهم ؛ كما أن الله سبحانه لما قال : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] ، وقال : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] أوجب ذلك اختصاص كل قوم بوجهتهم وبشرعتهم ، وذلك أن اللام تورِّثُ – تُفِيْدُ – الاختصاصَ ؛ فإذا كان لليهود عيدٌ ، وللنصارى عيدٌ ؛ كانوا مختصين بِهِ ؛ فلا نشركهم فيه ؛ كما لا نشركهم في قبلتهم وشرعتهم " [(١)] .

معنى كلامه ؛ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصَّصَ لكل قوم عيدًا ؛ فالنصارى لهم عيدٌ ، واليهود لهم عيدٌ ، وكذلك المسلمون لهم عيدٌ خاصٌّ بهم ؛ فلا يكون لهم عيدٌ غير الذي شرَعَهُ الله – عزَّ وجلَّ – لهم.

الدَّلِيْلُ الرَّابِعُ مِنَ السُّنَّةِ : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ؛ فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ** » [(٢)] .

فالنصارى عيدُهم يوم الأحد ، واليهودُ عيدُهم يوم السبت ، وهدى الله المسلمين ؛ ليكون عيْدُهم يوم الجمعة ؛ فدلَّ ذلك على أن هذا اليوم بالنسبة لنا عيدٌ ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَّى الجمعة عيدٌ

---

(١) " اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم " (١/٥٠١) .

(٢) أخرجه مسلمٌ (٨٥٦) .

في غير موضع ، ونهى عن إفراده بالصوم ؛ فكلُّ ذلك أدلةٌ على التَّخْصِيْصِ .

واللام في قولهِ : « **فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ** »، للتخصيص، وأيضًا هي في قوله : « **فَجَاءَ اللهُ بِنَا ؛ فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ** » ، للتخصيص ؛ فدلَّ ذلك على أنَّ لكل قومٍ وأمةٍ عيدًا خاصًّا بهم.

هذه بعضُ الأدلةِ في هذا الصَّددِ ، وهي واضحةٌ جليةٌ في أنَّ الأعياد من الشرائع ، ولا يجوزُ لأحدٍ إدعاء أن الأعياد من العادات ، وحرامٌ (شرعًا) الاحتفالُ بأيِّ عيدٍ سوى ما شرعه الله ؛ أيا كانَ مسماه – عيدَ رأسِ السَّنةِ ، أو عيْدَ ميلادٍ ، أو عيْدَ زواجٍ ، أو عيدَ حُبٍّ ، أو غير ذلك من عشرات الأعياد ، التي هي على مدار السنة !! – فكلُّ هذا ابتداعٌ في دين الله ، ما أنزل الله به من سلطان ، ويأثم صاحبه على هذا الفعل ؛ فضلاً عن أنَّهُ مخالفٌ لسنةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد قال – تعالى – : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣] ، وغير ذلك من الأدلة التي استدللنا بها على خطرِ الإعراضِ عن هدي رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أو اقترافِ البدعِ بسهولةٍ ويسرٍ.

○ **خلاصة المسألة (في الولاء والبراء)** : أنَّ الأعياد من المنهاج والشرائع التي جعلها الله لكل أُمة؛ فلا يجوز أن نُشرّع عيدًا لأنفسنا ؛ لأنَّ الله – عزَّ وجلَّ – نهى عن ذلك.

أيضًا ؛ أعياد الكفار مليئةٌ بالمعاصي التي تخصُّ الاعتقاد:

مثل (ما يسمونه بابا نويل !!) الذي يحضرونه يوم الخامس والعشرين ، ويقولون : إنه يأتي من عند مريم الأم بالهدايا !! فكلُّ ذلك فسادٌ في الاعتقاد ؛ فهذه هي أعيادهم ، كلها معاصٍ ، وقبائحُ ، وكفرياتٌ تهدِمُ الاعتقادَ السليم هدمًا.

والأعياد (أيضًا) لها أثرٌ في دين الخَلْق ودنياهم :

إنَّ البشر بطبيعتهم يتأثَّرُون بمن يخالطُونهُ ؛ فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « **الرَّجُلُ عَلَى دِينِ**

خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ »[(١)].

فإذا ظلَّ المسلِمُ متَشبِّهًا بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ، ومشاركًا لهم في أعيادهم ؛ حتمًا سيتأثَّرُ قلبُهُ – ولابد – ، وسيجد نفسَهُ مع الوقت يحبُّهُم ، ويتوددُ إليهم ؛ فانظر إلى الذين سافروا إلى بلاد الكفار، وعاشوا فيها تجدهم معجبين بهم ويحبونهم – إلا من رحم ربي –، وهذه المحبة بسبب كثرة الاحتكاك ، والتعامل معهم ، والاختلاط بهم ؛ فأورثه ذلك محبةً في القلب يشقُّ عليه إخراجُهَا.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : " إن مشابهتهم في بعض أعيادهم يوجبُ سرورَ قلوبِهم بما هم عليه من الباطل "[(٢)].

قال – تعالى – : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩] ؛ فإذا شاركتَهُم في أعيادهم ، ورأيتَ ما يفعلُونَهُ من المعاصي والذنوب، وقلبُك لا يُنْكِرُ ؛ فهذا مُؤْذِنٌ بنزول المصائب والعقوبات ؛ لأنَّ اللهَ – عزَّ وجلَّ – لعن بني إسرائيل؛ لفعلهم ذلك .

فالأصل إذا رأيت منكرًا أن تُغَيِّرَهُ ؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ** »[(٣)].

فإذا شاركتهم في عيدهم؛ فأنت بذلك لم تغير؛ لا بِيَدٍ، ولا بِلِسَانٍ ، ولا بِقَلْبٍ، ليس هذا فقط؛ بل أنت مقرٌّ على ما هم عليه، بذهابك معهم إلى الكنيسة، وحتى إن لم تذهب إلى الكنيسة؛ فأنت تخرج

---

(١) أخرجهُ أبو داود في " السُّنَنِ " (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٣٧٨) ، وأحمد (٣٠٣/٢ و ٣٠٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – ﷺ – . وحسَّنَهُ الألبانيُّ في " صحيح الجامع " (٣٥٤٥).

(٢) " اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم " (٥٤٦/١).

(٣) أخرجه مسلمٌ (٤٩) .

وتذهب إلى الأماكن التي هم فيها .

فأضعف الإيمان أن تُنْكِرَ بقلْبِكَ ما يحدث ، وما تراهُ :

فمشاركتهم فيما يسمَّى بـ : (عيد الحب !!) أمرٌ محرَّمٌ ، والمشاركة تكون بأي شكل كتوزيع الهدايا الحمراء والورود في هذا اليوم ؛ احتفالاً به ، وإذا مررتَ في الطرقات رأيتَ المحلاتِ كلَّها مليئةً بألوان حمراء – وورود وهدايا وكروت – ، والرجال والنساء يشاركون في هذا المنكرِ ؛ فَتَحْزَنُ حُزْنًا شَدِيْدًا ، ويتقَطَّعُ القَلْبُ ؛ لحُدُوثِ ذلك في بلادِ المسلمين ؛ فهؤلاء لم ينكروا ؛ بل شاركوا في ذلك ، وقد لعن الله – عزَّ وجلَّ – بني إسرائيل ؛ لعدم إنكارهم المنكر ، و (اللعنةُ) هي : الخروج من رحمة الله ؛ لذلك تنزل المصائب علينا بشكلٍ عجيبٍ ؛ فتجد في الشارع مشكلة ، وفي البيت مشكلة ، وأزمات مادية ، واقتصادية ، وأخلاقية ، وأزمة في الطعام ؛ فأصبحت الأزمات في كل شيءٍ بسبب المخالفات والمعاصي التي تُقترف آناء الليل ، وأطراف النهار ، وليس هناك أيُّ حياءٍ من الله تعالى ؛ بل إننا نشاركُ هؤلاء في معاصِيْهِم لله ربِّ العالمين .

جُبل ابنُ آدمَ عَلَى التَّفَاعُل بَيْنَ المُتَشَابِهَيْنِ :

وكمثالٍ على ذلك : لو أتَيْنَا بطَبَقٍ فيه أربعُ أو خمسُ برتقالاتٍ ؛ فلو كانت فيهم واحدةٌ فاسدةٌ ، فسَوْفَ تُفْسِدُ الآخرين ، وتُؤَثِّرُ فيهم ، وكذلك الحال مع بني آدم ؛ فإذا جلست مع صاحب علمٍ ؛ فستأخُذُ من سمتهِ وكلامهِ ، وإذا جلستَ مَعَ ذِي لِسَانٍ سَلِيْطٍ ستأخذ منه كذلك ؛ لذلك تجدُ الولد الذي يتلَفَّظُ بالشتائِمَ ؛ ابوه وأمه يفعلان أمامهُ ذلك ، وكذلك ذو المزاج العصبيّ ؛ وذو الخلق الحسن كذلك؛ لأنَّ أهلَهُ كذلك ، وكذلك ؛ إذا تشبَّهت مع الكفار ستتأثر بهم ، وبأفعالهم ولابُدَّ ، وهذا التَّشابُهُ مع الكفار سيُورِّثُ شيئًا من المودة والموالاة ، ونحن ذكرنا ؛ أنَّهُ لا تجوزُ المودَّةُ ، ولكن جائزٌ البرُّ ؛ فالقربُ منهم ، والتقليدُ لهم في أفعالهم وأعيادهم وأحوالهم ؛ سيورِّثُ ذلك من حيثُ لا يدري الإنسانُ .

ولم ينقل أحَدٌ عن القرون الأولى أنَّهُم كانوا يُشَاركون الكفار في أعيادهم :

كان الكفَّارُ من اليهود والنصارى وغيرِهم يَعِيْشُون مع المسلمين على مَدَار الزمان ، ولم يُنْقَل عن أحدٍ في تاريخ (التابعين) – كلِّه – بَعْدَ رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصَّحَابَةِ أن المسلمين كانوا

يشاركونهم في أيِّ أعيادٍ لهم ، مع أنَّ المقتضِي كان موجودًا.

أما ما يتردد من أن المسلمين يريدُون الاعتداء على النصارى واليهود بلا سبب؛ فهذا شيءٌ ليس في شريعتنا ؛ فقد كان يعيشُ مع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهودُ والنصارى ، وماتَ ودرعُهُ مرهونةٌ عند يهوديٍّ ؛ فما يتردد الآن ليس من ديننا في شيءٍ.

فما زال اليهود والنصارى يعيشون (في بلاد المسلمين) في أمانٍ وسلامٍ ، وكلٌ له حدوده ، وله شريعته ؛ فالدين دينُ الله – عزَّ وجلَّ – ، والأرض أرضُهُ ، وسبحانَهُ وتَعَالَى لو أَرَادَ أن تكُون الدُّنيا كلُّها مسلمين ؛ لفعل ذلك ؛ فلا يُعْجِزُه شيءٌ ، ولكنَّهُ قدر أن يكون هناك يهودٌ ونصارى وغيرُهُم من الملل لحكمة؛ فهذه مشيئتهُ ، ومقتضى حكمتِهِ.

فقضية الولاء والبراء غايةٌ في الأهمية ، ومن يريد أن يستفيض فيها ، ويكونَ عنْدَهُ مزيدٌ من علم ؛ فعَلَيْهِ بكتابِ : (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – ؛ فهو كتابٌ رائعٌ في بابِهِ ؛ فإذا قرأتَ فيه ؛ وجدتَ هذه المسائلَ مبسوطةً باستفاضةٍ ، وترى كيف سَرَدَ فيه – هذا الشيخُ الجبلُ الأشَمُّ العَلَمُ ؛ رحمه الله – مسألةَ الولاء والبراء .

○ مسألةٌ : هل عداوةُ الكفار ، وعدمُ موالاتهم تقتضي أننا نقاطعُهُم في الأمورِ والمنافع الدنيوية، أم يُستثنى من ذلك أمورٌ ؟

لقد أفاد وأجاد العلامةُ صالح الفوزان – حفظه الله – في الردِّ على هذا السؤال ؛ حيثُ قال : " بل يستثنى من ذلك أمورٌ :

● **الأول** : أنه مع بغضنا لهذا المعتقد؛ يجبُ أن نَدْعُوَهُم إلى الله سبحانَهُ وتَعَالَى ، ولا نتركَهُم ونقُولَ : هؤلاء أعداء الله وأعداؤنا ؛ يجبُ علينا أن ندعوهم إلى الله ؛ لعل الله أن يهديهم .

● **الثاني** : لا مانع من مهادنةِ الكفار عند الحاجة ، إذا احتاج المسلمون لمهادنتهم ؛ لكون المسلمين لا يقدرون على قتالهم ، ويُخْشَى على المسلمين من شرهم ؛ لا بأس بالمهادنة إلى أن يقوى المسلمون على قتالهم ، أو إذا طلبوا هم المهادنة ، ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١] ؛ فيهادِنُون ؛ لكن ليس هدنَةً دائمةً ، إنما هدنةٌ مؤقتةٌ مؤجلةٌ ، إلى أجلٍ ، حَسَب رأي إمام المسلمين ؛ لما فيه من المصلحة.

● **الثالث** : لا مانع من مكافأتهم على الإحسان إذا أحسنوا للمسلمين ؛ قال الله – تعالى – : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

● **رابعًا** : الوالدُ الكافِرُ يجبُ عَلَى وَلَدِهِ المسلم أَنْ يُبِرّه؛ لكنه لا يطيعُهُ في الكفر ؛ لقولِهِ – تعالى – : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤– ١٥].

● **خامسًا** : تبادلُ التجارةِ معهم والشراءِ منهم ؛ شراء الحاجات منهم ، واستيراد البضائع والأسلحة منهم بالثمن ؛ لا بأس بذلك ، وقد كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعامل مع الكفار ، وكذلك عامَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر – وهم يهودٌ – على أن يزرعوا الأرض بجزءٍ مما يخرج منها ؛ ليس هذا من الموالاة ، وليس منهيًّا عنها.

كذلك الاستدانة منهم ، النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استدان من اليهودي طعامًا ، ورهن درعه عندهُ ، بطعام اشتراه لأهلِهِ، ومات وهو درعه مرهونة عنده ؛ لا مانع من هذا ؛ لأنَّ هذه أمور دنيوية ومصالح ، ولا تدلُّ على المحبة والمودة في القلوبِ.

فلابُدَّ أن نُفَرِّقَ بين هذا وهذا ؛ لأن بعض الناس إذا سمع نصوص عدم محبة الكفار محبتهم ؛ قد يَفْهَمُ أنه لا يتعامل معهم ، ولا يتصل بهم نهائيًّا ، وأن تكون مقاطعة نهائية ، لا ! هذا محددٌ بأحكامٍ ، وبحدودٍ ، وبشروطٍ معروفةٍ عند أهل العلم مأخوذةٍ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

- **سادسًا :** أباح الله التزوُّجَ من نساء أهل الكتاب ؛ بشرطِ أن يكُنَّ عفيفاتٍ في أعراضهن ، وأباحَ الله لنا أكْلَ ذبائحهم ([1]) .
- **سابعًا** : لا بأس بإجابة دعوتهم ([2]) ، وأكلِ طعامهم المباح؛ كما فَعَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
- **ثامنًا** : الإحسان إلى الجيران من الكفار ؛ لأنَّ لهم حقَّ الجوار.
- **تاسعًا** : لا يجوز ظلْمُهم ؛ قال – تعالى – : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] " ([3]) .

○ مسألة : ما هي شروطُ الموالاةِ التي تُخْرِجُ صاحِبَهَا من المِلَّةِ ، وشروطُ الموالاة التي لا تخرج صاحبها من الملةِ ؟

لابد أن نفرِّق بين التولي والموالاة ؛ فالتولِّي يُخْرِجُ صاحبَهُ من الإسلام إلى الكفر ، والموالاة من كبائر الذنوب والمعاصي ، ولكنْ صاحبُهَا مسلمٌ .

- **قال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى –** في معرض رده على الفرق بين الموالاة والتولي – :

([1]) وقد قال – تعالى – : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[المائدة:٥].

([2]) أي : بإجابة دعوتهم إلى الطعام ، وليس المقصودُ : إجابةَ دعوتهم للمشاركة في أعيادهم ، أو احتفالاتهم ، أو دخول كنائسهم ، – وقد سبق بيان ذلك –.

([3]) " شرح الأصول الثلاثة " – للفوزان – (ص: ٤٨–٥٠) – باختصارٍ – .

● **فأجاب – رحمه الله – :** " التولِّي كُفْرٌ يُخْرِجُ صاحبِهُ من الملة ، وهو كالذَّبِّ عنهم ، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي .

والموالاةُ : كبيرةٌ من كبائر الذنوب ؛ كَبلِّ الدَّوَاةِ ، أو بَرْيِ القَلَم ، أو التَّبَشْبُشِ لهم ، أو رفع السوط لهم "[1] . انتهى كلامه .

● **قال الشيخ صالح آل الشيخ – حفظه الله – :** " أما حكم الموالاة ؛ فإن موالاة المشركين والكفار محرمةٌ وكبيرةٌ من الكبائر ، وقد تَصِلُ بصاحبها إلى الكفر والشرك ، ولهذا ضبطها العلماء بأن قالوا : تنقسم المولاة باسمها العام إلى قسمين :

● **القسم الأول : التولِّي ،** وهو الذي جاء في قولِهِ سبحانه تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] ، يقالُ : تولاه توليًا ؛ فالتولِّي : معناه : محبةُ الشركِ وأهْلِ الشرك ، ومحبَّةُ الكفر، وأهلِ الكفر ، أو نصرة الكفار على أهل الإيمان ؛ قاصدًا ظهورَ الكفر على الإسلامِ ، بهذا الضابط يتضح معنى التولي ، وهو كفرٌ أكبرُ ، وإذا كان من مسلمٍ ؛ فهو رِدَّةٌ .

ما معنى التولِّي ؟

الجوابُ : معناه : محبة الشرك وأهل الشرك – لاحظ العطف بالواو – ؛ أي : يحب الشركَ وأهلَ الشرك جميعًا مجتمعة ، أو أن لا يحبَّ الشركَ ، ولكن يَنْصُرُ المشرك على المسلم ؛ قاصدًا ظهور الشرك على الإسلام ، وهذا الكفر الأكبر الذي إذا فعلَهُ مسلمٌ صار رِدَّةً في حقه ، والعياذ بالله .

● **القسم الثاني : الموالاة ،** والموالاةُ المحرَّمَةُ من جنس محبة المشركين والكفار ؛ لأجل دنياهم ، أو لأجل قراباتهم ، أو لنحو ذلك ، **وضابطُها** :

أن تكون محبة أهل الشرك لأجل الدنيا ، ولا يكون معها نصرة ؛ لأنه إذا كان معها نصرة على مسلم بقصد ظهور الشرك على الإسلام صار توليًا ، وهو في القسم المكَفِّر ؛ فإن أحبَّ المشرك

([1]) انظر " الدرر السنية " (٨/٤٢٢).

والكافر لدنيا ، وصار معه نوعُ موالاة لأجل الدُّنيا ؛ فهذا محرمٌ ومعصيةٌ ، وليس كفرًا ؛ دليل ذلك : قوله – تعالى – : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١] ؛ قال علماؤُنَا – رحمهم الله تعالى – : أثبت اللهُ – عزَّ وجلَّ – في هذه الآية أنه حصل ممن ناداهم باسم الإيمان اتخاذ المشركين والكفَّارِ أولياءَ بإلقاءِ المودَّةِ لهم .

وذلك كما جاء في " **الصَّحِيْحَيْنِ** " [(١)] ، وفي " التفسير " ، في قصة حاطب ﷺ المعروفة ، أنَّهُ أرسل بخبر رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهذه عظيمةٌ من العظائمِ – للمشركين ؛ لكي يأخذوا حِذْرهم من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فلما كُشِفَ الأمْرُ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحاطب ﷺ : « **يَا حَاطِبُ ! مَا حَمَلكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟** » ؛ فَدَلَّ عَلَى اعْتِبَارِ القَصْدِ .

لأنه (**إِنْ**) كان قاصدًا ظهور المشرك على الإسلام ، وظهور المشركين على المسلمين ؛ فهذا يكون نفاقًا وكفرًا ، و (**إِنْ**) كان له مقصدٌ آخرُ ؛ فله حكمُهُ .

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُسْتَبِيْنًا الأَمْرَ – : « **يَا حَاطِبُ ! مَا حَمَلكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟** » ، قال: يا رسول الله ، ما لي أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله ؟ ولكني أردتُ أن يكون لي عند القوم يَدٌ يدفع بها عن أهلي ومالي ، وليس من أصحابك أحَدٌ إلا له هنالك من قومه من يدفع الله به عن أهله وماله ، قال : « **صَدَقَ ، لا تَقُولُوا لَهُ إلاَّ خَيْرًا** » [(٢)] ؛ قال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق ، قال : « **إنه قد شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ؛ فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم** ».

قال الله – عزَّ وجلَّ – في بيان ما فعل حاطب ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٠٠٧) – وله أطرافٌ أخرى في " الصَّحيح " – ، ومسلمٌ (٢٤٩٤) من حديث عليٍّ ﷺ .

(٢) " **صحيح** " البخاري برقم : ٦٩٣٩ .

بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة:١] ، يعني : حاطبًا ، ففعلُهُ ضلالٌ. وما منع النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تَرْكِ عمر ﷺ ؛ إلا أن حاطبًا ﷺ لم يخرج من الإسلام بما فَعَلَ ، ولهذا جاء في روايةٍ أُخرى ، قال : « **وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ؛ فقال : اعْمَلُوا ما شِئْتُم ؛ فقد غفرتُ لكم** » [(١)].

قال العلماءُ : لِعِلْمِهِ – عزَّ وجلَّ – بأنهم يموتون ويَبْقُون عَلَى الإسلام ، دلَّت هذه الآيةُ ، وهي قولُهُ – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾[الممتحنة:١] ، مع بيان سببِ نزولها من قصَّةِ حاطبٍ ﷺ ، أنَّ إلقاءَ المودةِ للكافر لا يَسْلُب اسمَ الإيمان ؛ لأن اللهَ ناداهم باسمِ الإيمان ؛ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مع إثباته – عزَّ وجلَّ – أنهم ألقوا المودة .

ولهذا استفاد العلماء من هذه الآية ، ومن آية سورة المائدة : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] ، ومن آية المجادلة .. ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة:٢٢] ، **إلى أنَّ الموالاة تنقسم إلى :**

تولٍّ وموالاة ، الموالاة بالاسم العام : منه تولٍ ، وهو المكَفِّر بالضابط الذي ذكرته لكم ، ومنه موالاة، وهو نوعُ مودَّةٍ ؛ لأجل الدنيا ، ونحو ذلك " [(٢)]

قال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ – رحمه الله – : فدخل حاطبٌ في المخاطبة باسم الإيمان ، ووصفَهُ به ، وتناولَهُ النهي بعمومه ، وله خصوصٌ السبب الدَّالِّ على إرادته ، مع أن في الآية الكريمة ما يشعر أن فعل حاطب نوعُ موالاة ، وأنه أبلغ إليهم بالمودة ، وأن فاعلَ ذلك قد ضلَّ سواء

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٢٧٤) ، ومسلمٌ (٢٤٩٤) .

(٢) " **شرح ثلاثة الأصول** " للشيخ صالح آل الشيخ (ص : ٤٠-٤٣) – باختصارٍ – .

السبيل؛ لكن قولَهُ : « **صَدَقَكُمْ ، خَلُّوا سبيلهُ** » [1] ؛ ظاهرٌ في أنه لا يكفر بذلك ، إذا كان مؤمنًا بالله ورسوله غيرَ شاك ولا مرتابٍ ، وإنما فعلَ ذلك لغرضٍ دنيويٍّ ، ولو كَفَر لما قال : « **خلُّوا سبيله** » . انتهى . [2]

○ الخلاصَةُ :

١ – أنَّ الأعيادَ من الشرائع والمناهج التي جعل اللهُ لكلِّ أمةٍ فيها شِرْعَةً ومنهاجًا ، وقد نهى الله تعالى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مشاركتهم في أعيادهم ؛ كما تقدَّم.

٢ – أنَّ ما يفعلوه في أعيادهم معصيةٌ وكفْرٌ .

٣ – أنَّ الأعياد لها أثَرٌ في دِيْنِ الخَلْقِ ودُنْيَاهُم ، ولهذا جاءت بها كلُّ شريعةٍ ، وقد شرع الله للمسلمين أعيادَهُم التي تكفيهم .

٤ – أنَّ مشابهةَ الكُفَّار في بعض أعيادهم توجِبُ سرورَهُم بما هم علَيْهِ من الباطل ، وقد قال – تعالى – : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

٥ – إنَّ الله تعالى جَبَلَ بَنِي آدَم على التَّفَاعُلَ بين المتشابهين ؛ فمشابهة المسلِم للكُفَّار في أعيادهم تقتضي التفاعلَ والتشابُهَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ ، وفي ذلك خطرٌ على دينه !!

٦ – أنَّ المشابهة تورث نوع مودة ومحبة وموالاة بين المتشابهين.

٧ – وجود الكفار في أمصار المسلمين يحتفلون بأعيادهم ، ولم يشاركهم أحدٌ من المسلمين ؛ رغم قيام المقتضِي الطبعي.

---

(١) قوله : " (**أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**) " ؛ ثابتةٌ في " صحيحِ " البخاريّ (برقم : ٤٢٧٤) ، ولمسلمٍ (٦٤٨٥) : " **صَدَقَ** "، ولأبي داود (٢٦٥٠) : " **صَدَقَكُمْ** " .

(٢) " **الدُّرَرُ السَنِيَّةُ** " (٤٧٣/١).

٨ – اتَّفَاق الصحابة على أن لا يُظْهِر أهلُ الذِّمَّة أعيادَهُم.

اعلم أنَّ من شروط عمر ﷺ التي اتفقت عليها الصحابة وسائر الفقهاء بعدهم : أن أهل الذمة من أهل الكتاب لا يُظْهِرُون أعيادَهُم في دار الإسلام ، وإذا كان المسلمون قد اتفقوا على منعهم من إظهارها ؛ فكيف يسوغُ للمُسْلِمين فعلُهَا ؟ أو ليس فعل المسلم أشدَّ من فعل الكافر لها ، مُظهرًا لها؟

٩ – نهيُ الصحابةِ والسَّلَفِ عن مشاركة الكفار أعيادهم ، أو الدخول عليهم فيها ، أو شهودها، ونحو ذلك .

❑ **قال المُصَنِّفُ : " اعلم أرشدك الله لطاعتهِ : أنَّ الحنيفية ملة إبراهيم : أنْ تعبد الله وحده مخلصًا له الدين ، وبذلك أمر الله جميع الناس ، وخلقهم لها " .**

📖 انتقل المؤلف – رحمه الله تعالى – لمسألَةٍ أُخْرَى بعدما ذكر قضية الولاء والبراء – مختصرًا – ، ونحن ذكرناها بشيءٍ من التفصيل ؛ فانتقل إلى مسألةٍ مهمةٍ ؛ ألا وهي الطاعة ؛ فقال :

(**اعلم**) : ونحن ذكرنا (مَعْنَى) العلم و (مراتبَهُ) قبل ذلك .

(**أن الحنيفية**) : والحنيفية هي ([1]) : كلمة حنيف ، وفي اللغة : الشيءُ المائلُ ؛ فيقال : حنيفٌ ؛ أي : مائلٌ عن الشركِ ، ومائلٌ عن الضلال إلى الحق.

(**ملة إبراهيم**) : قال – تعالى – : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣].

وملة إبراهيم ، هي : التوحيد ؛ أي : أن الناس تعبد الله وحدَهُ ؛ فجميع الأنبياء والرسل أتوا بالتوحيد؛ كما قال – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ

([1]) " مقاييس اللغة " لابن فارس (٢/١١٠) ، و" لسان العرب " (٩/٥٧) ، و " تاج العروس " للزبيدي (٢٣ / ١٦٩) .

فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦].

وقال – تعالى – : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

قال ابن القيم – رحمه الله – : " فقولهُ : ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ براءةٌ محضةٌ ، ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إثباتُ أنَّ له معبودًا يعبدُهُ ، وأنتم بريئُون من عبادته ؛ فتضمنت النفي والإثبات ، وطابقت قول إمام الحنفاءِ : ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] " (١).

❍ **قولُ المصَنِّفِ** : (**أن تعبد اللهَ**) : فالعبادة لها معنيانِ :

❶ **الأولُ** : هو تحقيقُ الذُّلِّ ، والانْكِسَارِ ، والعُبُودِيَّةِ لله ربِّ العالمين (٢).

فالعبادة تُحقَّقُ بالذلِّ والانكسارِ لله ربِّ العالمين ، ولو أنَّ العبد فى حال عبوديته للهِ لم يحقِّق ذلك في قلبِهِ ؛ فما حقَّق العبودية ؛ لأن العبودية لها ركنان ، هما : (كمال الحب ، وكمال الذل) .

فلو سقط واحدٌ منهما ؛ فمن المحال يستقيم للعبد عبادة ؛ فإذا حققت محبة الله ، ولم تحقق الذل له ؛ سقط ركنٌ ، وإذا حققت الذلَّ له ، ولم تحقق الحبَّ ؛ سقط ركنٌ ، وسيكون – حتمًا – هناك خللٌ في العبودية ، ولكن كي تعبد ربك ؛ كما يحبُّ ويرضى ؛ لابد من الإتيان بالركنين – معًا – .

❷ **الثاني : قال شيخ الإسلام – رحمه الله – :** " الْعِبَادَةُ " هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ " (٣).

فكلُّ عملٍ وقولٍ يحبُّهُ الله – تعالى – ويرتضيه لك ؛ فاعلم أن فيه تحقيقًا لعبوديتهِ .

وحتى الخواطر إذا كانت لله ؛ فهي عبادة :

---

(١) " بدائع الفوائد " (١/١٤٥).

(٢) " مختار الصِّحاحِ " (ص : ١٩٨) ، و " تاج العروس " (٨/٣٣٠) .

(٣) " مجموع الفتاوى " (١٠/١٤٩) .

فالخواطر التي فيها تفكير في شيء يُرضي الله تعالى عبادة شرط أنَّ تستحضر النية ، وقد ندب القرآن إلى التفكر في أكثر من موضع ؛ قال الله – تعالى – : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وغير ذلك

فإذا جلس العبْدُ وفكَّر في شيءٍ نافعٍ لدين الله – تعالى – ، ولكنَّهُ يَعْجِزُ عن فعلِهِ ؛ فله أجرٌ إن صدق النية ؛ رغم أنه لم يفعلْ شيئًا.

○ **قولُ المصنّفِ** : (**مخلصًا له الدين**) : الإخلاص شرطٌ ، ونحن ذكرنا أنَّ العبادة لها ركنان ، وأيضًا لها شرطان :

فأما الركنان ؛ فهما – كما ذكرنا – : كمال الذلِّ ، وكمال الحبِّ ، وأما الشرطان ؛ فهما : الإخلاص ، والاتباع.

(**والاتباع**) : ذكرناه – مرارًا – باستفاضة في دروس السنة والبدعةِ .

أما (**الإخلاص**) : **ففي اللغة** : هو تنقيةُ الشيءِ .

قال ابنُ فارس – رحمه الله – : " خَلَصَ : الخاء واللام والصاد أصلٌ واحِدٌ مطَّرِدٌ ، وهو تنقيةُ الشيءِ وتهذيبهُ ، يقولُون : خلصتُه من كذا ، وخَلَصَ هو " [(١)].

وأخلصتَ لله ؛ أي : نقيتَ كل جوارحك ؛ – سواءٌ قلبك ، أو عقلك – من غير الله ؛ فأيُّ عملٍ تعملُهُ ؛ فهو خالصٌ له سبحانه ، ليس لك فيه حظُّ نفسٍ ؛ فلا تريد أن يشكرك أحدٌ أو يمدحك عليه ، ولا تتعالَ به على الخلق ، ولا تُظْهِر أنَّك التقيُّ المجتهدُ الذي تعمل لخدمةِ المسلمين ؛ فأنت لا تريدُ كلَّ ذلك ؛ لأنه يُحْبِطُ العمل.

○ **مسألة الإخلاص تحتاج دومًا إلى تجديد النية :**

---

(١) " مقاييس اللغة " (٢/٢٠٨) مادة (خلص).

فليست المسألة معرفة معنى الإخلاص لغةً وشرعًا ، ولكن العبرةَ برسوخ هذه المعاني في جذر القلب، وليس ذلك يسيرًا ولا سهلاً ، وأيضًا ليس مُحَالاً ، ولكنه عزيزٌ .

لأن الله كلَّفَك به ، والله لم يكلف نفسا إلا وُسعها ؛ قال – تعالى – : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ؛ فما دام كلَّفَكَ بِهِ ؛ فهُوَ في وُسْعِك ، ولكنه عزيزٌ يحتاجُ إلى مجهودٍ ؛ لأنَّ النفس أمارة بالسوءِ ، وتأبى أن يفوت شيءٌ عليها من غير أخذ نصيبها منه ؛ فهي تحتاجُ إلى عقلٍ مُنْتَبِهٍ ، وقَلْبٍ يفْقَهُ ، واستعانةٍ بالله ، وتبرؤٍ من الحول والقوة ؛ فأنت تحتاج إلى أشياء كثيرةٍ ؛ كي تُحَقِّقَ منزلة الإخلاص ، وتحتاج إلى جُهْدٍ على النفس والقلب والعقل ، وقبل كلِّ ذلك ؛ دعاء ، وتضرع إلى الله أن يُبَصِّرَك ، ويمُنَّ عليك بالأسباب التي تُحقق بها الإخلاص ، وليس مجردَ الدعاء، فتقول : يارب ارزقني الإخلاص وأنت لا تحرك ساكنا بجوارحك؛ فهناك أسبابٌ لابُدَّ من أخذِهَا ، وإلا لو دعَوْتَ عشرين سنةً أن يرزقك الإخلاص ؛ فلن يأتي لك إلا بأخذها .

○ ومن أسباب تحقيق الإخلاص :

الإكثار من الأعمال الخفية التي لا يعلمها أحَدٌ إلا رب العالمين ؛ فإذا اجتهد العبدُ في الطاعة في السِّرِّ ؛ بعيدًا عن أعين الناس ؛ فبكرم الله وفضله يمُنُّ عليه بالإخلاص في العلن ؛ إذا لزِم الأمر أن يعمل من الأعمال ما يظهر أمام الناس – فهناك أعمالٌ لا تستطيع إخفاءها – كالدعوةِ إلى اللهِ ؛ فالدَّاعي يُلْقِي دروسًا في المساجدِ ؛ فكيف يُخفي هذا العملَ ؟ أو صلاةِ الرجالِ في جماعةٍ ، أو شخصٌ قام بتأليفِ كتابٍ ، أو من يذهب لدارِ الأيتامِ ؛ فلابد أن يقابِلَ مسئولَ الدار ، أو يذهب إلى حفظ القرآن في وسط مجموعة ؛ فكلُّ هذه أعمال لا يستطيع الشَّخصُ أن يُخْفِيَها ؛ فهي ظاهرةٌ أمام الناس .

❑ وللإخلاصِ مراحِلُ :

الأولى : إخفاء العمل.

الثانية : – وهي أعلى من الأولى – : أن تُجاهد ألا يرى أحدٌ عملَك ، وكأن طاعتك معصية .

الثالثة : – وهي أعلى منهما – : أنك تحزن إذا علِم أحدٌ عملك ، وهذا لا ينافي حديث أبي ذر

ﷺ ، وفيه قال : قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : « **تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ** » [(١)] .

قد أفرحُ بثناءِ الناس على ما أنا فيه من خيرٍ ، ولكن أحزنُ على معرفة العمَلِ ، وانكشافِهِ للناسِ ؛ لأنِّي لا آمَنُ على نفسي الفتنةَ .

فانتبِه ؛ إذا وصلتَ إلى هذه المرحلة تكونُ بذلك حقَّقْتَ الإخلاص في أعلى درجتِه ؛ فإذا اكتشف أحدٌ أنك – مثلاً – كنت صائمًا ؛ فشعورك سيكون كأن أحدًا اكتشف أنك عملتَ معصيةً ؛ فكيف سيكون حزنك ؟ فهذا مِثْلَ هذا ، وستقولُ : هذا عملٌ كان بيني وبين الله ؛ فتحزن على ظهورِه ، نسأل الله أن يُمكِّنَّا من هذا ؛ فأنا أتحدثُ عن عِلْمٍ قاله أهلُ الإخلاص – فيه – ؛ فهذا حالهم ، وهذا ما رُوِي عنهم .

ولابد من إعطاء النفس شيئا من المباح حتى لا تتطلَّع إلى الحرام :

فأنت أغلقتَ على نفسك كلَّ أبواب المحرمات ؛ فتركت سماع الأغاني ، ومشاهدة الأفلام ، والخروج إلى الأماكن المختلطة ، والكلام مع النساء – التي لا تحل لك – ؛ فأغلقت الأبواب كلَّها ؛ فلابد من إعطاء النفس حقَّها من المباح – كما قال الإمام أبو حنيفة – ؛ حتى لا تتطلَّعَ إلى السَّعْي إلى مدحِ الناس ، وترائي بعملها !!

○ **قال المصنِّفُ** : (كَمَا قَالَ – تَعَالَى –: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات :٥٦]) .

📖 فالغاية التي أتَيْنَا وخُلِقْنَا مِنْ أجْلِهَا – في هذه الحياةِ – هي العِبَادَةُ ، وأيُّ شيءٍ يحُولُ بَيْنَنَا وبَيْنَ الوصول إليها يجبُ أن يوضع تحت الأقدام ؛ كما قَالَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ** » [(٢)] ؛ فكلُّ أمْرٍ من أمْرِ الجاهلية تحت قدميك

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٦٤٢) .

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٢١٨) .

موضوعٌ ؛ أي : ليس له منزلة في حياتك ؛ فالأصل عندك هو العبادة ، وأيُّ شيءٍ يمنَعُك من عبادة ربِّ العالمين ، – والعبادة بالمفهوم الذي ذكرناه في الأقوال والأفعال والأحوال – تحتَ قَدَمِكَ .

○ **قَالَ الْمُصَنِّفُ** : (**ومعنى يَعْبُدُون : يُوحِّدُونَ**) .

📖 أي : يُفْرِدُونَ الله – تَعَالَى – بالعبُوديَّةِ ؛ فلا يَجُوزُ أَنْ تَعْبُدَ مع الله حجَرًا ، ولا شجرًا ، ولا وليًّا، ولا نبيًّا ، ولامَلَكًا ، ولا غيرَ ذلك ؛ فعبادة الله الواحدِ الأَحَدِ ؛ مَعْنَاهَا ؛ كَمَا قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وتكون عبادتك كُلُّهَا لله – عزَّ وجلَّ – ؛ فلا يشاركُهُ أحدٌ فيها ؛ فلا تذبَحْ لِصَنَمٍ ، ولا لوليٍّ ، ولا تَطُفْ حول قبرٍ ؛ فكلُّ هذه الأمور من الشركيات التي لو اعتقدتَ نفعها ، أو ضُرَّها خرجت من الملَّةِ!!

فلابد أن تكون عبادتك لله الواحد الأحد ، وأن تفعَلَها ؛ كما أمر الله – تعالى – بها ، وأن تكونَ على هدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فهذه هي العبادة المقبولة ؛ فلو فعَلْتَهَا – كما أمر الله ، ولكن على غير هدي رسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فلن تُقبل ؛ لقَوْلِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ** » [(١)].

أي : مردودٌ على صاحبِهِ ، وكذلك لو عملتَ عملاً على هَدْي رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولكن شابَهُ الرياءُ ؛ فهو مردودٌ ؛ لقوله – تعالى – : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٧١٨) .

ولقد صحَّ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** » [1] .

فمن عمل عملاً ، وأشرك فيه مع الله أحدًا ، تركهُ ، ولم يقبله ؛ فحريٌّ بالعبد الذكيِّ الفَطِنِ أن يتحرَّى أقواله وأفعاله ؛ فما خَلُص منها لله يُقْدِم عليه ، وما شَابه الرياء يتركهُ .

وكان الحسنُ البصريُّ يقولُ : " رَحِمَ الله رجلاً إذا تكلَّم ؛ فإن كان لله أمضَاهُ ، وإن كَانَ لِغَيْرِ اللهِ أبْقَاهُ " .

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٩٨٥) .